الحوار بين منطلقاته وثمراته

مبارك الحمداني

يذهب الباحث العماني عبد الله العليان في مقالته المعنونة بـ (الحوار وثمراته الإيجابية في الرؤية الإسلامية) مستقصياً بعض المنافع والعوائد الإيجابية المنعكسة نتيجة الحوار على بناء اللبنات الأساسية التي تشكل لب الخطاب الثقافي في المجتمع. ويشير العليان في مقالته إلى أن هناك "الكثير من الحوارات أثمرت عبر التاريخ الإنساني في مجال الدعوة والتربية والثقافة عن إجلاء الكثير من الحقائق والتبصير بها والاهتداء للحق والصواب، وإيجاد المؤمن الصالح والمتواضع والمتوازن في حياته، وأوجدت المثقف المنفتح المبدع والمعرفة الحقة والكلمة الصادقة النافعة..." فيما يتبع تحليله منهاجاً استطلاعياً عاماً يحاول استقصاء آثار الحوار الإيجابية على مستوى المفاهيم الكبرى داخل نسق الثقافة العامة.

فنحن نجد في صلب المقالة تركيزاً أساسياً على إيجابيات الحوار في إطار المفاهيم الكبرى للوعاء الثقافي ويتحدد في ثلاث نطاقات رئيسية (أثر الحوار على كل من (الدعوة/ التربية/ الثقافة).

يلخص الكاتب نور الدين أبو لحية في كتابه "الأساليب الشرعية لتربية الأولاد" منطق الحوار بالقول : "نريد بالحوار هنا ما هو أعم من الجدال، لأن الجدال هو المناقشة على سبيل المخاصمة، ومقابلة الحجة بالحجة، بينما الحوار هو مراجعة الكلام بين طرفين أو أكثر دون اشتراط وجود خصومة بينهما، أو عدم خصومة.ونحسب أن تقييد الجدال بقيد (التي هي أحسن)قد يكون مرادفا للحوار، لأن الجدل الذي يخلو من العناد والتعنت للرأي.."

وفي هذا الصدد فإننا يمكننا التركيز هنا علاوة على تقديم العليان في مقدمة مقاله وقبل الولوج إلى تبيان بعض ما وصفه من ثمرات إيجابية للحوار، يمكننا القول إن الحوار الإيجابي إذا ما أردنا الوصول إلى مرافئه واستقاء منعكساته المثرية فإننا لابد أولاً من تحديد وتبيان الطرق والمنطلقات العلمية بشكل عام التي يجب أن ينبني عليها هذا الحوار، لأن الحوار المثمر . في أساسه . مناقشة علمية، للعلم والحجة الدور الفاعل فيه، بحيث تكون الغلبة والنصرة لأقوى المتحاورين حجة. وهي تتلخص في إطارين مهمين، يتجسد أولهما في إيجاد منهجية واضحة للحوار تحدد موضوعه ونوع الحجج التي يستند إليها، والنتيجة التي يروم الحوار الخروج بها.

وإشكال المنهج أو المنهجية إشكال متجسد كمعوق رئيس للكثير من الحوارات التي تطفو على الساحة بين الحين والآخر، فمسألة وجود منهجية واضحة ومرسومة للحوار هي مهمة من حيث إن الحوار أحيانا يتحول إلى مراء بسبب افتقاده للمنهجية الصحيحة، بل إن المتحاورين أحياناً ترتفع أصواتهم وتعظم الجلبة بينهم مع أنه لا خلاف حقيقي بينهم.

ولهذا كان تحرير النزاع وتبيين مواضع الاتفاق والاختلاف من الأمور الأساسية في الحوار العملي الناجح، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)(آل عمران: مِنَ الآية ٦٤)

أما المنطلق الآخر المهم من المنطلقات العلمية التي لابد أن ينبني عليها الحوار المثمر فيتجسد في مدى واقعية الحوار وهو ما يشير إليه بعض الباحثين بأنّه يجنب الحوار الوقوع في الجدل البيزنطي الفارغ الذي لا يستفاد منه أيّ فائدة، حيث يقول الغزالي في آداب المناظرة: (ألا يناظر إلا في مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالباً).

هذا فيما يتعلق بالمنطلقات العلمية التي تسهم على أقل تقدير في إيجاد حوار مثمر وفاعل يوجه نتاجه إلى خدمة بنود الثقافة والوعي والتقارب بين أطرافه، كما أن هناك العديد من الآداب التي لابد أن توضع في الاعتبار في سبيل إجلاء حوار فعال ومثمر نذكر منها الهدوء والبعد عن الانفعال ومنها أيضا التزام القول الحسن، وتجنب منهج التحدي والإفحام. إضافة إلى أهمية تقدير الخصم واحترامه.. وهذا في تقديرنا هو الإطار الأخلاقي الذي يضمن إيجابية الحوار ويسير بأطرافه نحو قطف الثمار الناجعة منه..

ومن هنا نعرج إلى ما وجه إليه العليان مقالته في استقصاء الآثار الإيجابية لثقافة الحوار حيث يذكر في بند مناقشته لأثر الحوار على الدعوة بعضاً من ملامح تلك الآثار بالقول إنّ من ثمرات الحوار في الدعوة ما نجده من خلال آيات القرآن الكريم التي تدعو إلى التدبر والتأمل والحوار والجدل بالحسنى، مشيراً إلى دعوة القرآن وتأكيده على دور الحوار في أن يقلب العدو صديقاً والخصم الألد ولياً حميماً. ولهذا حرص القرآن الكريم على أنه يجب على كل من يحاور أو يجادل، أن يكون حواره دحضاً للباطل وإحقاقاً للحق، حتى يصل المجتمع الإنساني إلى الغاية التي رسمها - سبحانه وتعالى- له. ويشير العليان أيضاً إلى أن من إيجابيات الدعوة بالحوار، وثمراتها الطيبة كذلك أنها تشيع المنظور الديني للإنسان والكون والحياة، حيث إنّ الداعية في حواره مع الآخرين يبرز الأفكار ويوضح القضايا التي قد لا تكون مطروحة بشكل أدق وأوضح للكثيرين، كما أنها تثبت الإيمان الحق في القلب من هذا المنظور الحواري بتبيان قدرة الله - سبحانه وتعالى- وعظمته، وتوحيده وقدرته، فالدعوة في هذا الجانب لها الكثير من المآثر والثمرات..

ثم ينطلق العليان إلى تحليل الآثار الإيجابية للحوار على مرتكز أساسي مهم في خطاب المجتمع الثقافي ألا وهو التربية مشيراً إلى أن ثمرات الحوار في التربية هي أكثر الثمرات رسوخاً وتأصلاً ونجاحاً . حيث إنه يقول إننا إذا ما بذرنا قيم الحوار والتواصل فإننا سنجني ثمار هذا الغرس، بأنْ ننشئ جيلاً متوازناً وإيجابياً ومتفاعلاً مع مجتمعه ومحيطه وعالمه، إلى جانب أنّ هذا الغرس سوف يحررهم من الخوف والتردد والتوجس من الآخرين المختلفين عنهم، وينمي فيهم روح الإيجابية والمنافسة والتفاعل والتأمل، والترجيح بين الآراء..

ومن القضايا المحورية التي يشير إليها العليان أيضاً في هذا الصدد ارتباط القضية بمسألة تطبيقات العولمة وآثارها العديدة والراهنية الحوارية التي تفرضها المعطيات المعاصرة للاستعداد لهذه المرحلة الجديدة التي يرى العليان أن الاختراق فيها أصبح مسألة قسرية وفرضية لا خيار لنا فيها، وبما يحتم إيجاد جيل جديد يؤمن بالحوار مع الآخر ويبصر إيجابيات الانفتاح من سلبياته حتى يستطيع على الأقل أن يتفاعل مع القيم الصالحة، ويحتاط للقيم المنحرفة أو السلبية..

وهنا نضيف بعداً مهماً أصبح يشكل ملمحاً أساسياً من ملامح راهنية المرحلة وهو ضرورة وجود مفهوم التربية على الحوار وهي ثقافة يبتدئ ترسيخها من مؤسسات العلم والمعرفة بالدرجة الأولى مستهدفة نقل طلاب المدارس والجامعات من مرحلة تكرار السجالات المتداولة في الشارع إلى نقاشات علمية منهجية داخل أروقة الغرفة الدراسية. وحيث إنّ المدارس والجامعات هي المكان الملائم لإنتاج فكر متميّز أصيل وجديد لا يَنقل ولا يجترُّ ما يُقال في سوق التنافس السياسي والشارع، بل يُغني الشارع بأفكار جديدة. فإنّ من المؤسف اليوم أن هذه الثقافة أصبحت مغيبة إلى حد بعيد، أو هي منقولة بشكلها العمومي الذي يجوب الشوارع بما لا يضيف إلى ثمرات الحوار أيّ جديد..

إنّ من المبادئ المهمة التي يجب أن تستهدفها التربية على الحوار هي غرس أساس مهم وهو أنّه لا يجوز مواجهة صاحب فكرة بالقول إن تفكيره خاطئ. فكما يقال إن الأفكار التي تبدو سخيفة أو خاطئة ليست بالضرورة كذلك، بل قد تكون أفكارًا عميقة. الأفكار السائدة ليست بالضرورة صحيحة.

ثم يعرج العليان في الجزء الأخير إلى مناقشة أثر الحوار وثمراته في مجال الثقافة، مؤكداً على أن الحوار يساهم في إيجاد ثقافة التفاعل كثمرة للقبول بالآخر ومحاورته بهدف توطيد جسور التواصل، ويشير إلى أنه في غياب الحوار الثقافي تمر في مقابله ثقافة الاستبداد بحديث يقود المجتمع إلى حالة سلبية من عدم التوازن وعدم الترابط، وبالتالي وضع المجتمع في إطارين؛ إمّا التصادم بين الأفكار والاتجاهات المتعارضة والوصول للصدام المادي، أو اضمحلال الكل في فكر واحد واتجاه تسلطي منفرد؛ مما يعني انقراض الإبداع، وموت التنوع، وإقصاء الاجتهاد، والتوقف التام عن الحركة الحيوية المستمرة.

ويجلي العليان في أهم أبعاد هذا الجزء معادلة مهمة وهي أن الاستبداد(يتناقض) مع الحوار، فمع وجوده (يتراجع) الحوار؛ لأنّه يمثل اعترافاً بالآخر، ومن ثمّ إذعاناً للتعددية والتنوع، وهذا أمر ترفضه الدكتاتورية، وفي الوقت نفسه فإنّ قطع الطريق أمام الحوار يقود تدريجياً إلى تسلط الرأي المنفرد، وإقصاء الرأي الآخر..

إنّ مفهوم الحوار يكتسي أهمية كبرى في وجود الإنسانية، باعتباره يمثل شكلا من أشكال علاقة الأنا أو النحن مع الآخر البشري الفردي أو الجماعي. إن الحوار يكتسب خاصية المركزية في حياة الإنسان والذات البشرية على وجه التحديد ذلك لكونه السبيل الناجع لبلوغ الحقيقة، واستبدال المعرفة الذاتية بمعرفة أقرب إلى الموضوعية، وتعويض المعرفة المزيفة بأخرى تقترب بشكل أو بآخر من اليقين، فإذا افترضنا أن الأفكار تختبئ في عقول الناس فالحوار هو السبيل لكشفها. إن الحوار هو لغة الإنسان التي جبل عليها مهما حاولت الثقافات سلبها أو تشويهها. فإنها تظل السبيل الوحيد إلى هدم المعرفة الظاهرة والمكونة من الأحكام المسبقة.

mu7k20@gmail.com